الانسان امام الحرّية ومسؤولياتها

محجوب بن ميلاد

جميع العصور الغابرة وجميع الحضارات الآفلة لم تطمح في شيء غير الحرية . والعجيب ان البشر سعوا وراء الحرية ، وفكروا فيها ، وطمحوا اليها ؛ وحلموا بها ، فاطلقوا عليها اسماء مختلفة ، وقنعوها باقنعة متعددة ، ونشدوها في سبل متباينة . فهذا يسميها حرية الارادة او اختياراً ، وهذا يطلق عليها لفظ الكسب ، وهذا ينعتها بالاستقلال ، وهذا يراها في الزهد والعكوف عن الدنيا ، وهذا يراها في الاقبال على الدنيا ، وهذا يراها في حرية الاهواء وفوضى العواطف . وكما اختلفوا في تسمية حقيقة الحرية كذلك اختلفوا في تسمية ضدها : فهذا يذكر الجبر ، وهذا يذكر التسيير ، وهذا يذكر الاقدار ، وهذا يذكر العبودية ، وهذا يذكر الرق . واعجب العجب ان حرية هذا عبودية ذاك ، وان انعتاق هذا رقّ ذاك .

افمن داعٍ الى الاطمئنان بعد ان اختلطت السبل هذا الاختلاط ؟ لئن كان هنالك حقيقة يقينية يمكن استخلاصها من تعدد الاقوال وتضارب الأهواء وتباين الانظار في حق الحرية ، فهي تنحصر في كون الحرية يجب البحث عنها لا في بطون المعاجم ولا خلال معميات الالفاظ بل في اعماق النفس حيث يتفجر ينبوع مائها الزلال . فالحرية ليست مجرد لفظ : هي احساس قوي يدوي في شعاب النفس القوية التي صهر معدنها صهراً موفقا . وليس يمكن ان تطمح الى الحرية ، فتختبر حقيقتها وتتذوق حلاوتها الجارحة ، ان لم تقم بضروب من الكفاح المضني خارج النفس وداخلها ولم تتغلب على صنوف من القوى تهدد حريتك . ولما كان الانسان ليس يبلغ حقيقةً كمالَ طبيعته الا اذا زكى نصيبه من الحرية الباطنة ، افليس من البديهي ان اسمى هدف يهدف اليه الفكر انما هو الوقوف عند تلك القوى التي تهدد نصيبنا من الحرية لتبيان اخطارها والاشارة الى سبل النجاة

منها ؟ أمن الغريب بعد هذا ان يقصر كارل يسبرز فصلا من فصول كتابه « احصاء وانظار على ابواب المستقبل » على تحليل هذه القضية الجوهرية ؟

يؤكد الفيلسوف الالماني منذ بدء دراسته ان الفرد لا يكون حراً الا اذا كان مستقلا في تفكيره ، وكان عمله لا يستمد وحيه الا من نظرته الشخصية . ثم يزيد هذا التعريف توضيحاً فيجزم بان الفرد الحر يسير شؤون حياته تسييراً ، فيكون لها اتجاه متصل ، هو اتجاه جوهر طبيعته . فالانسان الحر يدرك حقيقة نفسه خلال ما يشتمل عليه تاريخ حياته من المواقف والاحوال التي تولدت عن قضاء ارادته ، وخلال ما نتج عن اوامر تلك الارادة من مختلف النتائج والعواقب .

ولا ريب ان هذا التعريف للحرية الفردية يشير الى جوهري شؤونها . هو تعريف مانع شامل على حد تعبير اهل المنطق . فالحرية عزم وقضاء ومسؤولية ، وهي عمل وانجاز وتحقيق : فمن يحلم بالحرية ليس حراً . والحرية مثابرة وصبر وتحمل لاعباء الامانة الروحية دوماً واستمراراً . وهي اخلاص لجوهر الطبيعة الفردية ولكُنه اشواقها . هي اسلوب كل فرد في فهم الحق والجمال والخير . وهي الاقتدار على تجسيم ذلك الاسلوب سواء اكان ذلك في المرمر المنحوت او في الشعر المنغم او في الرقص الموقع او في العلم الفاتح او في العمل المنقذ . هي وقف على النفوس الكبيرة ، وفيصل التفرقة بين الحيوانية والانسانية .

ولئن كان السواد الاعظم من البشر يتصورها اليوم على غير هذا الشكل فلكونه عدل عن تقديس الغاية فاصبح يقدس الوسائل ، وظن ان حرية الاجتماع وحرية التعبير وحرية الصحافة والحرية السياسية تراد لنفسها لا لتفتّح النفوس وانعتاقها من ضروب العبودية . اضف الى ذلك ان القوى الظلامية التي تتألب في هذا العصر على الحرية لم تشاهد الاحقاب الماضية مثلها قط : لا من حيث التعدد ولا من حيث التنوع ولا من حيث التشكل . ولقد اسهب يسبرز في تبيان هذه القوى فأكد ان بعض المفكرين انما ذهبوا الى استحالة تحقيق الحرية لطغيان تلك القوى على النفوس .

والحرية لا تثمر الا بالمعرفة ، فالمعرفة وحدها هي المحررة . وضالة الناس ليست المعرفة ولا الحرية ثمرة المعرفة : وانما هم ينشدون العنف وما يثير العنف من ضروب

العسف والغرور . افمن الغريب بعد هذا ان تكون الحرب هي اكبر خطر يهـدد الحرية؟ وانما كانت الحرب كذلك لانها منطق العنف الصريح يحكّم في قضايا الشعوب والدول وسائلَ الاكراه بدلا من وسائل المفاهمة بالتي هي احسن ، فتتوارى المدارك وتتوارى الحرية وتحل محلها ظلمة القوة المادية العمياء .

وقد يدور بخلد بعضهم انه لم يسبق للحرية امكان في العالم الانساني وانه يجب ان نيأس من امرها وان نستسلم لقضاء القوى الظلامية التي تهيمن على النفوس البشرية . ولكن يسبرز ابعد الناس عن ان يذهب هذا المذهب : لذلك فانه لم ينته من تحليله الى هذه النهاية حتى اسرع فنظر في حظوظ الحرية في هذا العصر حتى يفجّر ينابيع امكانها ويفتح هبوب ريحها في الافق الانساني. فهو يؤمن بان الامكانيات الانسانية لا تقع تحت الحصر ما دام الانسان يضطرم اخلاصاً لحقيقته وما دامعلى استعداد لان يضطلع باعباءمسؤولياته. فالاخطار التي تهدد الحرية الانسانية ان دلت على شيء فهي انما تـدل على ان النفس البشرية لها جنبة مادية تخضع لناموس المادة . وهذا يجب الا ينسينا الجنبة الثانيـة : فهي الجنبة العاقلة او الجنبة الروحية . ولهي هي الجنبـة المنيرة المنقذة ، ولهي هي التي تفجّر للحرية ينابيعَ الامكان ، وعليها وحدهـا يعلق امر حظوظ الحرية في اي عصر من العصور .

فما هي اذاً حظوظ الحرية في هذا العصر باعتبار تلك الجنبة ؟ لقد قصر يسبرز همـه على تبيان حقائق بسيطة ولكنها كثيراً ما تغيب عن الاذهـان : اولا : تبيان ان تشاؤم البشر في حق المستقبل تشاؤم رخيص اساسه الخوف والجبن والاستسلام : فـلا التاريخ يبرره ولا العلم يؤيده ولا العقل يدعو اليه . ان ما يخبيه الغد بين طياته ليس اجنبياً عن ارادتنا ، فما نريده يكون ، ان خيراً فخير وان شراً فشر ؛ فاستسلامنا سلفاً هو الكارثة ، وعقدنا العزم على مجابهة الواقع هو البركة .

ثانياً : تبيان ضرورة محاربة الحرب ، فـما دامت الحرب اعظم خطر يهدد الحرية وجب على كل انسان حر ان يسعى لابعاد شبحها ابعاداً نهائياً . ولكن كيف الانتهاء الى تلك الغاية ما دام العنف كامنا في طبيعة الانسان ؟ واين السبيل المؤدي الى النجـاة من الحرب؟ام هل ترى ان الاقدار التي تحف بالحياة الانسانية تجعل من الحرب امراً ضرورياً لا سبيل الى استئصاله استئصالا نهائياً ؟ وهل تظن ان العالم يمكن ان يأمن شرور الحرب

غداً لو نظم تنظيم العدل ؟ لا ينكر يسبرز ان الحرب حقيقة غامضة تلقى جذوراً عميقة في طبيعة الانسان ، بل هو يذهب الى ابعد من هـذا فيؤكد ان الحرب اغمض من ان تعلل بما تعلل به عادة من العوامل الاقتصادية او المذهبية . ومع ذلك اليست تطمح الانسانيـة دائماً الى السلم طموحها الى اعذب الاماني ؟

يسجل يسبرز كل هذا ويستنتج منه ان الانسان الحر الساعي في سبل الحرية لا يكون حكيماً الا اذا ادرك انه يتحتم عليه ان يتجنب افخاخ موقفين اثنين من الحرب : ان يعتبر ان الحرب امر لا سبيل الى اجتنابه مطلقاً او انها القضاء الذي لا مفر منه ، او ان يعتبر على عكس ذلك ان الحرب امر غامض يجب الاستخفاف به ويمكن ان نأمن شره بمجرد التغني بالسلم وبنعم السلم . فما الموقف الحكيم اذاً من الحرب ؟ يجيب الفيلسوف الالماني من دون تردد بقوله: انه يتجلى في كل جزئية من جزئيات حياتنا اليومية: فالانسان الحر يأبى العسف ويأبى الطغيان ، وهو في كل جزئية من جزئيات حياته اليومية يحاول القضاء على العسف وعلى الطغيان بالتي هي احسن وبالمفاهمة والاقناع . ويردف قـائلا : ان حرب الحرب يجب ان تجري في مستوى حياتنا اليومية ؛ ثم يجب توسيع دائرتها شيئاً فشيئا الى ان تشمل الحياة الدولية نفسها . ولو تدرع زعماء السياسة العالمية بالصبر وحاولوا التفاهم بالتي هي احسن لامكن لهم ان يغنموا فترات تنسىء من اجل السلم شيئا فشيئا وتبعد شبح الحرب شيئاً فشيئا . وهل التاريخ البشري شيء آخر سوى مراوغة السلم للحرب ؟

ان الانسان الحر هو الانسان الذي يريد حياة اجتماعية تمكن الفرد من حياة حرة بفضل وفيرها ما يجب توفيره من الاسباب ، حتى يشارك جميع المواطنين في ظل القانون مشاركة الصدق ومشاركة الحرية في سبيل تحسين شروط الحياة العامة وفي سبيل تزكية زاد الافراد وزاد الجماعة من الثقافة العالمية النيرة ومن التفكير الخصب البصير . فالانسان الحر مستعد اذاً دائما للمقاومة كلمـا حاولت دولة من الدول ان تقضي على تلك الشروط التي هي شروط حريته .

اليس معنى هذا ان الرغبة في الحرية وحب الحرية من الاسباب الكافية للتسلح وخوض غمار الحرب ؟ اليس معنى هذا ان الحرية تحتم على ابنائها ان يهبوا للدفاع عن المؤسسات التي هي مؤسسات الحرية كلما حاولت بعض الدول الكاسرة القضاء عليها ؟

ثالثا : تنحصر النقطة الثالثة في المبدأ المطلق الذي تستند اليه الحرية الحقيقية ، او قل تنحصر في المبدأ المطلق الذي يستلهمه الانسان الحر اثناء الكفاح المحرر . فـالفيلسوف

الالماني اراد ان يسحق حجج من ذهبوا الى نفي الحرية بتهويلهم امر القوى الظلامية التي تتألب على مُريد الحرية او على الساعي الى شهادة الحرية في اي ميدان شئت . فبيّن بيانا لا مزيد عليه ان الانسان الحر هو الذي يشعر في اعماق كيانه بدويّ نادر الوجود يأبى الا الانطلاق ، ويأبى الا ان يتحدى كل القوى الظلامية التي تكتنفه من كل جانب وتتألب عليه وتريد قهره ، ويأبى الا ان يفجّر للحرية سبلها في هذا الوجود بمضاء عزيمة نادرة مهما كان الميدان الذي هو ميدانه ، سياسيا كان او فكرياً او فنياً او روحياً .

وليس من شك في ان النفوس المستعبدة لا تدرك جنس ذلك الدويّ الذي يدوي في شعاب النفس الحرة . وقد يكون ابشع جور تجور به النفوس المستعبدة على الارادةالحرة ما يقع منها حينما يشتبه عليها امر الارادة الحرة المكافحة فتحسبها من جنس ارادةالطغاة ومن جنس عزيمة كواسر البشر . وشتان بين هذه وتلك . فارادة الطغاة من جنس الظلام ومن معدن الجور ، اما ارادة الاحرار فمن جنس النور ومن معدن الحق . ارادة الطغاة تحدوها العصبية ، لذلك كانت عمياء البصيرة لا تجنح الا الى العنف ولا تنتهي الا الى العدم، اما ارادة الاحرار فنيّرة البصيرة ، لذلك كان لسانها التسامح ومن اياتها البينات البعث والاعجاز . سلوك الطغاة يمكن حصره في العوامل الاجتماعية او التاريخية او النفسية التي حفّت بهم ، اما سلوك الاحرار فيتجاوز ضيّق الآفاق ولا يمكن ان يعلل بقاعدة او بمعيار او بوقت او بمكان . وبعد فهل نحن في حاجة لان نقول ان اعلى مرتبة يبلغها الاحرار هي مرتبة المجتهدين مثلما خصّصها المفكرون الاسلاميون القدامى في الميدان الديني ؟ وهل عنى المتصوفون الاسلاميون القدامى شيئاً آخر حينما اكدوا ان « الحرية الكاملة هي العبودية الكاملة » ؟ فالاحرار الحقيقيون هم الذين لا يستلهمون الا اصل الوجود حينما ينطقون بلسان الحق والخير والجمال ، لذلك كانت ارادتهم من ارادة الله .

اذاً فمن رغب في تفجير ينابيع الحرية في الافق الانساني في العصر الحاضر فما عليه الا ان يذكر الانسان بواجبات الاخلاص للذات وشروط الاخلاص للذات حتى تضطرم ذاته من جديد بجوهريّ المبادىء والاصول فيثوب الى رشده المنجي . وهل يمكن ان يخلص الانسان للذات ما لم يكن شاعراً دقيق الشعور بما يهمهم في اعماقها من جوع اصيل الى الحق والخير والجمال ، وما لم يكن عارفاً دقيق المعرفة بما يكتنفه من الظروف الواقعية

التي تحول دون تحقيقه ما تصبو اليه ذاته ، وما لم تهتدِ الى الوسائل التي تضمن له التغلب على ما يعترضه في طريقه من الصعاب ؟

لذلك عطف يسبرز على شؤون هذا العصر وعلى ما طغى على النفوس في هـذا العصر من عوامل التشاؤم ، من جراء ما يحدق بالافراد وبالجماعـات من اخطار يخشى ان تنتهي بهم الى اهوال حرب تكون القضاء على الحضارة البشرية برمتهـا . وندّد بهذا التشاؤم فبيّن انه مبني على تهويل الامور من دون مبرر ، وان هذا التهويل من شأنه ان يذهل الناس عن مجابهة الاخطار فيستسلمون له سلفاً فيقعون فيما كانوا يخشونه بفضل الخشية نفسها ، ثم يعللون كل ما يحيق بهم من الكوارث بالقضاء وبالقدر ، ويفوتهم ان تخاذلهم عن مجابهة الظروف هو قضاؤهم وهو قدرهم .

فالاخلاص للذات ليس في التخاذل ولا في الخوف ولا في الجور ، وانمـا هو في الاضطلاع بشريف المهام الانسانية في نطاق العزم الصادق والاقـدام والجرأة والحقّ . أليس معنى هـذا ان سبل الحرية سبل الكفاح المتصل واليقظـة المتصلة والحزم المتصل والحرص المتصل على العدل وعلى الحق ؟ وهل يمكن ان يصبر الحر على كفاحـه المضني الطويل ما لم يكن يستلهم مبدأ مطلقاً لا تأخذه فيه لومة لائم لانه هو الذي يضرم في قلبه جذوة الايمان وفي ارادته صوت العزيمة وفي عقله نور القصد ؟

انتهى الفيلسوف الالماني من تحليله الى عين النتيجة التي انتهى اليها بعض المتصوفـين الاسلاميين حينما اكدوا « ان الحرية الكاملة هي العبودية الكاملة » رغم ما بينه وبينهم من فوارق مدهشة في المشارب والمبادىء والاصول . وهو يميز المعرفة العلمية عن المعرفـة الفلسفية تمييزاً صارما في حق الحرية . فهو يؤكد ان العلم لا يمكن ان يدرس الا العوامـل الموضوعية التي تتجسد في واقع حسي ، اجتماعيا كان او تاريخيـا ، ويكشف عن ارتباط الاسباب بمسبباتها وعن تسلسل الاحداث الاقتصادية والاجتماعية التي تتولد فيها الحرية ، ولكنه عاجز عن الكشف عن حقيقة الحرية في انفجار يقظتها في اسرار النفوس . ذلك ان ميدانه ميدان الاحداث الخاضعة لنواميس الحتمية او الجبرية . امـا الفكر ، ويقظة الفكر في باطن السرائر ، وما يعرضه الفكر على ضمائرنا فتنبري ارادتنـا مختارة لتنفيذه وتتحمل مسؤولياته في جميع جزئيات حياتنا اليومية ، فهو ميدان الحرية وهو ميدان المعرفة الفلسفية . وهو يؤكد ان « الحرية هي لسان الانسان الحر حينما يخاطب الانسان الحر . فهي

هي التي تبعث في الانسان الدعوة الملحة في سبيل الكرامة، وهي هي التي تنير سبل الامكان، وهي هي التي تترصد كل رسالة تهدف للرفعة وللسمو » . وصفوة القول ، فالمعرفة العلمية تخاطب المدارك فتقدم لها جميعها عين الغذاء ، اما المعرفة الفلسفية فهي تفكير في كنه الحرية، وحثّ على الاتجاه في سبل الحرية ، وهي تخاطب النفوس حتى تُرد كل نفس الى نفسها فتهتدي الى اصل نشاطها الباطن وتكشف عن نبع كيانها الخفي وتدرك سرّ سرّها فتنبري فريدة في اخلاصها الفريد .

واذ ينتهي يسبرز الى مثل هذه الحقائق يتميز غيظاً على اهل هذا الزمان ويؤكد ان اعظم وهم وقعوا فيه هو اعتقادهم الزائف انه يكفي ان يستندوا الى ما تسفر عنه البحوث الاجتماعية والتاريخية من النتائج والحقائق والنواميس ليفوزوا بالتوفيق فيما يسطرون للانسانية الحاضرة من البرامج والاهداف. او قل ان ذنب اهل هذا الزمان ظنهم ان النجاة في تقليد الآباء والاجداد لا في تفجير ينابيع الاجتهاد الكفيل ، وحده ، بابتكار جديد الحلول لجديد المشاكل في حياة ابداً متجددة .

ويأبى الفيلسوف امام هذا الوهم الشامل الا ان يذكّر اهل هذا الزمان بان مستقبل البشر ليس كامنا في الماضي وفيما بقي لنا من محجّر آثاره ، وانما هو كامن في اعماق نفوسهم حيث يتجدد كل شيء . فالحرية ليست ماء يحبس في السدود : بل هي ابداً تنفجر ، وهي ابدا تكسر السدود ، وليس يمكن حصرها في جامد المعارف ولا سجنها في متاحف الماضي مع المحنطات . ولئن كان للفلسفة محل في حياة البشر فلأن ميدانها الاصلي انما هو الكشف عن حقيقة الحرية وعن حقيقة آثارها وتأويل الاحداث التاريخية والاحداث الاجتماعية التأويل الحق .

ولقد حصر يسبرز هذا التأويل للاحداث التاريخية والاجتماعية في ثلاثة مظاهر مرتبطة ببعضها ايّ ارتباط : اولا الحرية من حيث هي اتصال بين الاحرار ، فهي نفي لكل من يزعم احتكار المعرفة المطلقة، وهي بالنقاش تتغذى وبالجدل تضطرم وتتفجر . وهي ثانيا نفي للطغاة الذين يطمحون الى ان يقدسهم البشر تقديساً ، ذلك ان الحرية نقد وجرأة على النقد . وهي ثالثا ثقة في الانسان واحترام للانسان ، لذلك كانت نفياً لكل من ينفي الحرية .

ما هي واجبات الفكر في حق الحرية ؟ لم ينته يسبرز من جولاته الفكرية حتى اصطدم بهذا السؤال الدالّ على ما لاصحاب الفكر من جسيم المسؤوليات في ميدان الكشف عن كنه الحرية وعن جوهري اندفاعاتها وعن اصيل اشواقها . وبالرغم مما قلناه عمـا هنالك من فروق جوهرية بين المعرفة العلمية والمعرفة الفلسفية فليس هناك من شك في ان الفلسفة والعلم صنوان لا سبيل الى التفريق بينهما من حيث هما يعملان كلاهما لفائـدة الانسان ويهتمان بكل ما يهم الانسان .

واذا ما عرفت ان الحق لا ينتشر ولاينتصر الا باتصال الناس بعضهم ببعض وبتبادلهم ما يتم الكشف عنه من الحقائق ، ادركت ان لرجال الفكر اعظم المسؤوليات واثقلها في هذا المضمار ، سواء اكانوا من العلماء او من الفلاسفة او من النقاد او من الادباء او من الجامعيين . ولئن كان هنالك مرض اصاب النفوس في هذا العصر وفتك بها فتكاً ذريعا فانما هو ما يكنّه السواد الاعظم من الازدراء لرجال الفكر . ولقد ندّد يسبرز بالذين لا يميلون كل الميل الا لمن كان من الفنيين او شارك في التقـدم الفني بصفة مباشرة او غير مباشرة ، اما رجال الفكر فانهم يعتبرونهم ثرثارين او بهلوانيين شغلهم الشاغل انيعينوا من انهكهم النشاط الجدي على تزجية اوقات فراغهم بما يقدمونه اليهم من الوان الترف العقلي. وفاتهم ان الفكرة الحية النيّرة تهدم عوالم وتبني عوالم .

لذا كان اعظم واجب ملقى على عواتق اصحاب الفكر الحقيقيين انمـا هو في العمل الدائب الصبور حتى تعود للفكر حرمته الحقيقية فيعود الى منصبه الحيوي الحقيقي ويصبح هو الدليل وهو الهادي بما يضطلع به من المهام : من تبديد للاوهـام القاتلة ، ومن اجلاء للحقائق الناصعة ، ومن تميز بين صادق الاندفاعـات وظلامي العصبيات ، ومن تفجير لينابيع الحياة القوية السالمة . ويعطف يسبرز على هذه القضية في خاتمة بحثه ، ويحصر تأملاته في نقط معدودة : اولا : ضرورة اذاعة نتائج البحوث والمجـادلات : فما دامت الحرية السياسية انما تبدو فيما يجري من ضروب النقاش والجـدل في العلن لا في السر فلنثبت ان الحرية السياسية تفرض على رجال الفكر السعي والعمل . ولنثبت كذلك ان عمل رجال الفكر لا يمكن ان يكون خصبا منتجاً الا في جو الحرية . فالحرية هي الجوّ الطبيعي للتطور الانساني الكامل مثلما ان المحيط هو الجوّ الطبيعي لتطور الحيتـان . فمن دونها يكون العقم ويكون الموت ويكون شلل الحياة الروحية . ثانيـا : اللبس الذي يحف بالفكر :

ليس صحيحا ان الفكر في صعيد الحق دائماً ، فقد ينتهي الى الحق وقد ينتهي الى الباطل ، وقد يحرر وقد يغري ، وليس في الامكان ان توكل امور الفكر الى قضاء خاص له الحكم في المحقّ او في المبطل . فالمفكر اذ ينشط يتحمل وحده مسؤوليته كاملة . ثالثا : الامل والكفاح : ومع ذلك فالفكر وحده هو الكفيل بالكشف عن الحق ، وهو الكفيل وحده بالاهتداء الى التعبير عن الحق .

لا بد لنا من معرفة هذه الالة الفكرية التي هي آلتنا الانسانية المثلى ، فما علينا الا ان نعرف الظروف التي تحفّ بنشاطها والاخطار التي تتعرض لها باستعمالنا اياها كي نقيمها وزنها وكي نحتاط منها . ولنضع دائماً نصب عيوننا هذه الحقيقة المزدوجة : ان الطف شيء في الوجود الانساني هو الفكر ، حضرته دائماً غيبة ، لذلك ظن بعضهم انه ليس شيئاً مذكوراً ، ومع ذلك فهو ابقى شيء في الوجود الانساني . ومن اخص خصائص الفكر انه لا ينمو ولا يزكو الا في جو الكفاح. لذلك كان الفكر انما يتغذى بالجدل الحرّ. فالجدل الحر يوسع آفاق الافراد ويولد ضمائر الافراد ويقدح زند العقول ويضم ثمار تجارب هذا الى ثمار تجارب ذاك ، فيتم بكل ذلك تمهيد السبل لاجلاء الحق ناصعاً .

وان انت امعنت النظر في كل هذا ادركت ان الحرية السياسية ليست الا الضمان الرائع لذلك الجدل الحر النيّر الذي يسفر عن اجلاء الحق . فليست هي غاية تطلب لذاتها : هي وسيلة لا غير ، ولكنها اروع وسيلة لاروع غاية ، هي الحلبة التي يتم فيها اروع سباق نحو اروع قبلة ، قبلة الحق ، في خدمة انسانية حرة . اليس معنى هذا ان اوكد الواجبات بالاضافة لرجال الفكر في هذه الفترة الدقيقة الحرجة التي تجتازها الانسانية قاطبة انما هو في السعي دائما في سبيل صقل العقول وتوضيح المسالك وتدقيق منعش الانظار وهتك استار كل الاكاذيب والاباطيل التي تروجها دعايات قاتلة وعصبيات ظلامية ؟ فهذا السبيل هو السبيل الوحيد الذي يضمن للبشر الحرية الروحية في ظل الحق .

فكر فيما انتهت اليه الاقطار الاسلامية من ذلة الانحطاط وافلاس الحقيقة وتهافت النظم والاوضاع طيلة القرون الماضية وفيما هي ما زالت تعاني من امره ما تعاني من جراء ذلك الانحطاط وذلك الافلاس وذلك التهافت ، ثم حاول ان تعلل ذلك فانك لن تجد سببا آخر غير تخاذل رجال الفكر في الاضطلاع بحيويّ المهام التي هي مهامهم الاصلية ، اعني تحديد معاني الالفاظ الجوهرية والحقائق السياسية التي تشيد عليها النظم

والاوضاع الاجتماعية وتغذى بأغذيتها العقول والقلوب والهمم . ورجال الفكر في الاقطار الاسلامية انما كانوا المتكلمين وعلماء التوحيد والفقهاء والائمة المجتهدين ، وليس من شك في ان افلاسهم كان له اعظم الآثار واوخمها في ميدان عواطف الحرية : فقد انتاب هذه العواطف ما جعلها تنقلب من الضد الى الضد ، فجود الحرية انقلب في النفوس فقراً وانانية وانكماشا ، واندفاعات الحرية ونخوة الحرية وبطولة الحرية حل محلها الاستسلام للاقدار والتوكل الذليل تحت الحائط والجبن امام الواقع والتمرغ في احضان الاسهل والاوفق واوهام الخيال . او قل بعبارة اوجز : اصبح الناس يفهمون الحرية فهم البطالة بدلا من فهمهم اياها فهم الخلق والابداع . وليس من شك في ان هذا هو سرّ من اسرار افلاس الشرق والشرقيين طيلة الدهور الماضية .

وانه لمن اوكد الاوكد ، لمن رام تشييد بناء النهضة الحقيقية في الاقطار الاسلامية جميعها ، ان يعمد الى شرورنا كلها فيعالجها معالجة جذرية بتربية عواطف الحرية في النفوس صحيح التربية ، حتى تعود للحرية ملامحها الحقيقية فتضرم من جديد في النفوس جذوة الشعور الجاد بالمسؤولية والاقدام على ميادين الخلق والابداع . وهل بدأ الاسلام انقلابه العظيم بغير هذا ؟ « وقل اعلموا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

فهل نحن اعددنا العدة لهذه التربية المحيية ؟ وهل لنا المربون الاكفاء الذين يضطلعون باعباء شعائرنا الباعثة حيّ البعث ؟ فالايمان بالتربية وبسحر مفعول التربية هو هو الايمان باسرار اعجاز البعث .